الفصل الثالث

في علاقتنا بالغرب

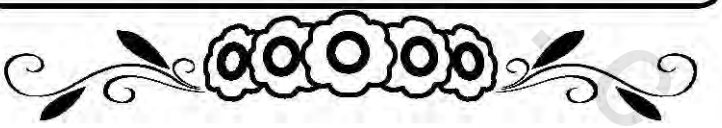

obeikandl.com

obeikandl.com

قراءة في بواكير المواجهة مع الغرب

أود أن أبدأ بالإشارة إلىٰ ملاحظتين مهمتين:

الأولىٰ: أن ثمة نوعًا من «الكتب» و«الكتابات» لا يكفي أن نقرأه مرة واحدة ثم نطويه باحثين عن غيره مما تخرجه المطابع ونعجز عن حصره، ذلك أن هذا النوع من «الكتب» و«الكتابات»- الذي يمكن أن نقرأه مثنىٰ وثلاث ورباع وزيادة!- هو الذي يمنحنا رؤية أعمق بذاتنا، وفهمًا أدق لمسار تاريخنا ، ومن ثم، يُبصِّرنا بطريقنا ومستقبلنا، ويكون بمقدوره أن يجعل عقولنا نابضة بالأفكار ذات القدرة التغييرية، وليست «الأفكار الميتة» كما يسميها مالك بن نبي.

كما أن هذا النوع من «الكتب» و«الكتابات» يولِّد عندنا أفكارًا كلية، ونموذجًا معرفيًّا نابعًا من هويتنا وحضارتنا، له خصائصه وسماته الذاتية؛ مما يجعلنا قادرين علىٰ التعامل مع الأفكار والمناهج الوافدة من موقع «الندية»، وليس من موقع «الانسحاق الحضاري»، والشعور بالدونية.

وأنا أرىٰ أن كتاب **(ودخلت الخيل الأزهر) للأستاذ محمد جلال كشك- رحمه الله**- واحد من هذه «الكتب» و«الكتابات» التي يجب أن نستحضرها دائمًا، ونتمثلها في وعينا وحركتنا ونحن في هذا الظرف الدقيق من حاضرنا.

أما الملاحظة الثانية، فهي أن من الظواهر المؤسفة في حياتنا الفكرية ، أن تاريخنا الحديث- سواء في جذوره والعوامل التي شكلت روافده وأثرت فيه، أو في تجلياته في الواقع الذي نعيشه غضًّا طريًّا- لا يزال الجدل حوله ممتدًّا بين طرفي نقيض!

وهذا الجدل والاختلاف حول تاريخنا وهويتنا وثقافتنا لا يبدو أمرًا سهلاً هينًا، يمكن تجاوزه أو التغافل عنه؛ لأن الخلاف حول تفسير التاريخ- كما يقول الأستاذ كشك في هذا الكتاب المهم- «ليس ظاهرة ترف، ولا هو مجرد خلاف حول تفسير الماضي، بل هو بالدرجة الأولىٰ خلاف حول الطريق إلىٰ المستقبل!.. فالأمم دائمًا

تُهرع إلىٰ تاريخها في لحظات محنتها، تستمد منه الإلهام والدعم النفسي ، بينما يلجأ خصومها دائمًا إلىٰ تزييف التاريخ وتشويهه؛ لتضليل الجماهير، وإفساد الطريق إلىٰ المستقبل».

التأسيس المعرفي لإدارة المواجهة:

ينطلق الأستاذ جلال كشك في دراسته لتاريخنا الحديث مما يسميه «**المدرسة الوطنية**» في مواجهة «**المدرسة الاستعمارية**»، مبينًا أن هاتين المدرستين تقفان علىٰ طرفي نقيض فيما يتصل بالرؤية العامة لأسس النهضة، وبتصور العلاقة مع الغرب.

وحسب قوله، فبينما ترىٰ «المدرسة الاستعمارية» أن القومية والتقدم والتحديث والتحرر كلها معانٍ ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده، فإن «المدرسة الوطنية» ترىٰ أن هذه المفاهيم لا معنىٰ لها، إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطني مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبي، بجميع أشكالهما.

فالتقدم أو الرجعية ليست موقفًا معلقًا في الهواء، ولا قضية فكرية خارج إطار الزمان والمكان، بل موقف يتحدد بأحداث حركة التاريخ ومصلحة الأمة المعينة. فلا يجوز أن نصف بالرجعية المجاهدة الجزائرية التي كانت تتمسك بالحجاب طوال زمن الاحتلال كرمز للمقاومة، وكوسيلة لها في المرحلة الأخيرة.

في كتابه هذا، يفضح جلال كشك بحقائق التاريخ ووقائعه أولئك الذين يريدون- أمثال لويس عوض- أن يجعلوا من الاحتلال الفرنسي بداية نهضتنا وتقدمنا في العصر الحديث، وأن يهيلوا التراب بهذا التحديث المزعوم علىٰ حضارتنا التي أضاءت الدنيا طيلة عشرة قرون- كما أكد ذلك ول ديورانت في «قصة الحضارة»- حين أرادوا أن يحتفلوا منذ سنوات علىٰ مرور مائتي سنة علىٰ الاحتلال الفرنسي، أو «التنوير» الفرنسي كما يزعمون!

والرسالة التي نذر لها كتابه الضخم هي التأكيد علىٰ أن «سلوك الحملة الفرنسية لا يختلف كثيرًا عن سلوك سائر الغزاة، إلا فيما أضافته الحضارة الحديثة من وسائل إتقان القتل الجماعي، والتنكيل بالشعوب التي ترفض الاحتلال!».

وهو في سبيله لتقرير هذه الحقيقة لا يعتسف الحقائق، ولا يزوِّر التاريخ- شأن أولئك المروِّجين للاحتلال- إنما يكتفي بسرد الشواهد والأحداث مع ربطها بعضها ببعض، ومع إزالة الغبار الذي وُضع- عمدًا- ليحجب الحقائق الناصعة- والمؤلمة أيضًا- عن الأجيال اللاحقة حتىٰ يسهل بعد ذلك تغريبها، وتزييف وعيها بماضيها وبمستقبلها معًا.

أهمية الكتاب تتجلىٰ أيضًا في أنه سلط أضواءً كاشفة علىٰ تركيبة المجتمع المصري إبان المواجهة مع الغرب، فأطال الحديث عن شرائحه وطبقاته (المماليك، العلماء، التجار والأعيان، العامة «مساتير الناس»)، مُبْرِزًا عوامل القوة فيه، وطبيعة (أهل الحل والعقد)، وموقع الأزهر وعلمائه في الخريطة الفكرية والسياسية.

إضافة إلىٰ أنه ألقىٰ الضوء علىٰ سياسات الاحتلال، والوسائل التي سلكها لإخفاء أطماعه وللولوج إلىٰ مكامن القوة في المجتمع المصري، وكيف أنه استطاع شق «**الصف الوطني**» بإثارة التمايز الديني واستغلاله لبعض الأقباط (مثل «المعلم يعقوب» الذي يُقدَّم باعتباره رائد القومية المصرية بينما هو نموذج للعمالة للمستعمر، وكان منبوذًا من المسلمين والأقباط علىٰ السواء!)، وشق «**الوحدة الفكرية**» عن طريق إضعاف الأزهر وبَذْر ما يسمىٰ بتحرير المرأة (نابليون استقدم معه 300 امرأة للترفيه! ثم كانت أول قائمة بما طلبه من فرنسا أن ترسل له 100 مومس فرنسية! ولا يخفىٰ علىٰ أحد ما يترتب علىٰ مخالطة هؤلاء للمجتمع المصري!).

لهذا يعد (**ودخلت الخيل الأزهر**) مرجعًا مهمًّا في التعرف علىٰ بواكير المواجهة بين الشرق والغرب، وفي التأسيس المعرفي لإدارة المواجهة معه علىٰ أساس من الثقة بالذات، واستيعاب دروس «التاريخ»، الذي هو- حسب تعبير كشك- الطريق إلىٰ المستقبل.

فضلًا عن أنه يقدم لنا «مهارة» في كيفية قراءة «ما بين السطور» في كتابات من يزوِّرون الحقائق، وضرورة استحضار الجو الفكري والنفسي للتاريخ، حتىٰ يمكننا أن نكتشف زيف قراءة أمثال لويس عوض، حين يعرض هذا الأخير نصوصًا من «تاريخ الجبرتي» ويستنتج منها ما يتراءىٰ له بعد أن يلوي عنقها، ويصرفها عن وجهتها

في تعسف واضح، وكذب صريح.. وما أكثر ما يلجأ لذلك لويس وأمثاله؟!

ولذلك لا نبالغ إذا قلنا: إن (**ودخلت الخيل الأزهر**) يمثل - عن جدارة - إحدى الركائز المهمة التي تؤسس للمدرسة التاريخية الإسلامية الوطنية، بعد أن استطاع أن يبلور رؤية منصفة واضحة المعالم لتاريخنا الحديث.

الأزهر رمز الأمة:

المتأمل في مفردات المشهد الفكري والاجتماعي، الذي كان قائمًا بمصر قبل مجيء الحملة الفرنسية، يتأكد له بوضوح أن شيوخ الأزهر كان لهم دور قيادي في نهضة المجتمع، وهو دور ينبثق - كما يقول كشك - من الفهم الإسلامي المتميز لدور الدين ورسالته في الحياة.. ومن ثم، فلم يكن شيوخ الأزهر رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة، ولا كانوا كما تصوِّرهم بعض الأقلام المعاصرة غارقين في الروحانيات لا يعلمون شيئًا عن العلوم الوضعية وأحوال المادة.. إنما برع كثير منهم في علوم الطب والفلك والرياضيات.

وبعد سرده لعدد من المواجهات التي حدثت بين شيوخ الأزهر والمماليك، مثل احتجاج الشيخ الشرقاوي على زيادة الضرائب والمكوس، وقيادته مظاهرة ضخمة ضد إبراهيم بيك ومراد بيك حتى أجبرهما على إبطال تلك الزيادة... **يخلص الكاتب إلى أن هؤلاء الشيوخ - بمساندة طوائف الشعب - لم يكونوا مجرد «قوة رمزية »، بل كانوا يستطيعون دائمًا تحويل كل مظهر سخط إلى إضراب عام، يتطور إلى مواجهة شاملة تطالب بإصلاحات أوسع من حدود المشكلة التي أثارت الحادث ، فكان بإمكانهم مواجهة الأمراء، وفرض مطالبهم، وإجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغدر.**

ثم يذكر الكاتب أنه ما إنْ سقطت «الدولة» المصرية في معركة إمبابة حتى أصبح الغازي المحتل والأزهر وجهًا لوجه.. فقاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات.. من تنفيذ الإضرابات الشاملة إلى تنظيم حركات سرية تُغذِّي أعمال المقاومة الشعبية التي وصلت ذروتها بثورة القاهرة الأولى والثانية.. إلى أعمال الاغتيال التي نفذها بنجاح طلبة الأزهر «المجاورون».

وبعد سلسلة من الصدامات بين الاحتلال وبين الشعب بقيادة الأزهر توصل الاحتلال إلىٰ قناعة كافية وهي أنه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يقوم به «الأزهر»، فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر علىٰ ضفاف النيل..

لكن تصفية الأزهر لم تتم عن طريق احتلاله بالخيل فحسب، ولا بتسمير أبوابه ومنع الدراسة فيه، إنما تمت- كما يلفت كشك في أكثر من موضع- بتسمير باب قيادته الفكرية للأمة.. وذلك بتغريب المجتمع من حوله حتىٰ تُقطع جذوره أو تذوىٰ.. ويبدو نشازًا متخلفًا ومثارًا للسخرية والتندر.. ومن هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة (التغريب) بين صفوفنا ، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات «فكرية» إلىٰ جانب الاستثمارات «المالية»، بل وكجزء منها، تهدف إلىٰ إقناعنا: أنه لا تحديث إلا بالتغريب.

ويخلص الكاتب في هذا الصدد إلىٰ حقيقة مؤلمة قائلًا: الحق أن مكانة الأزهر لم يُتطاول عليها ولم تُمتهن إلا علىٰ يد نابليون، إلىٰ أن أنجز المهمة الحُكم المتغرِّب الذي بدأه محمد علىٰ وأكمله من جاء بعده.

وفيما يتصل بـ «التغريب» وأهدافه، يؤكد الأستاذ جلال كشك أن الاحتلال عمل علىٰ تزييف التاريخ بهدف إجهاض موجة العداء المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري، الذي شلَّ تقدمنا وأبقانا في أسر التخلف خلال مائة وخمسين عامًا حاسمة في تاريخ العالم، ثم رمانا بابنته الشرسة المتوحشة المدججة بتكنولوجيته. وبدلًا من تنمية هذا الوعي وتوجيه هذا النفور من الغرب في اتجاه الحرب الوطنية، بدأت محاولات «التحبيب» في الغرب ، فهو الذي حضَّرنا، وهو الذي علمنا، وهو الذي عرَّفنا لأول مرة معنىٰ كلمة «حرية» و«دولة» و«أمة» و«قومية»، بل هو الذي أخرجنا من القرون الوسطىٰ، وحررنا من الاستعمار التركي، وبعث فينا الروح القومية.. فعلىٰ يديه عرفنا أننا مصريون! أو عرب!

وهنا يلفت الكاتب أنظارنا إلىٰ أن الغرب وهو يدعونا إلىٰ تقليده والاقتداء به، فهو- أي الغرب- يقصد تقليده في العادات الاجتماعية والمظاهر السلوكية، دون

إكسابنا العلوم العملية التي تقوم عليها النهضة، فالتغريب يبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ، ومن ثم لا بد من انسلاخها تمامًا عن كل ما يربطها بماضيها، ويميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والظاهر السلوكية مع إبقائه متخلفًا عاجزا عن إنتاج سلع الغرب، عاجزًا عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم، فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين.

الطبيعة الاستعمارية للغرب:

ثمة إشكالية تستوقف الدارسين لتاريخ الصراع بين الغرب والشرق، تتعلق بطبيعة الغرب والدوافع التي كانت من وراء استعماره للشرق، ونهب ثرواته قرونًا متطاولة.

وهذه الإشكالية هي: هل كان الغرب يعبِّر في استعماره هذا عن موقف مبدئي، ونزعة متأصلة فيه، أم كان ذلك مجرد نزوة منه، وعملًا شاذًا لا يُقاس عليه؟!

يذهب جلال كشك- والتاريخ يؤيده- إلى الرأي الأول، مؤكدًا «أن الحملة الفرنسية لم تكن ظاهرة منفصلة عن التاريخ السياسي الاستعماري الفرنسي »، ذلك أن فرنسا ما قبل الثورة كانت تخطط باهتمام بالغ لغزو مصر، وقد قام الملكيون الفرنسيون بدراسات واتصالات حينئذ.. وفي عهد لويس السادس عشر طالب (سان بريست) سفير فرنسا في الأستانة بغزو مصر، وعلى إثر إلحاحه أرسلت فرنسا البارون (دتوت) إلى مصر لدراسة ثغورها ومواقعها ، ووصفت مهمته بأنها «مهمة سرية لشرقي البحر المتوسط »، وكانت مهمته الحقيقة استطلاع إمكانية الاستيلاء على مصر وإحالتها إلى مستعمرة فرنسية، لذلك أبحر إلى الإسكندرية في صحبة العالِم الطبيعي (سونيني) على ظهر الفرقاطة (أطلانط) وواصل رحلته إلى رشيد ثم إلى القاهرة.

ثم كتب هذا البارون في تقريره بعد الزيارة أن الاستيلاء على مصر لن يكون إلا «احتلالًا سِلْميًا لبلد أعزل»، وأنه يرى ضرورة إذاعة منشور «يطمئن الأهالي إلى أن

الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء وحلفاء للسلطان، ومحرِّرين لهم من ربقة المماليك»... وهذا بالضبط ما فعله نابليون بعد ذلك..

وهنا يتساءل الكاتب تاركًا الإجابة للقارئ الذكي: فهل كان ثمة فرق بين فرنسا في عهد الملكية «البابوية» وفرنسا في عهد الثورة «التنويرية»!

وإيضاحًا للحقائق التي تحكم سير الأمم والحضارات، يبين كشك أن الثورة لا تغير مصالح الدول، بل على العكس هي في الغالب تعطي دفعة قوية جديدة لتحقيق هذه المصالح. إن النظام القديم ينهار عندما يعجز عن تحقيق مصالح الدولة، ولكن ما من ثورة حتى الآن (ثورة تنبع من المجتمع وليست مؤامرة مفروضة عليه من الخارج) قد تنكرت لمصالح الدولة؛ لذلك كانت الثورة البورجوازية الفرنسية هي استمرار للمصالح الفرنسية، التي أصبح النظام الملكي عاجزًا عن تحقيقها، كانت مصالح فرنسا تحتل مكان الصدارة بين المصالح الغربية في مصر قبل الحملة الفرنسية، كان لها قنصل عام في القاهرة وقنصليتان في الإسكندرية ورشيد. والتجار الفرنسيون الذين كانوا في القاهرة منذ العهد الملكي كانوا أول المرحبين باستيلاء فرنسا الثورة على مصر.

ويقول «هيرولد» صاحب كتاب «بونابرت في مصر»: «إن سيلًا من المذكرات عن المسألة الشرقية، ظل يغمر وزارة الخارجية الفرنسية طول عشرين عامًا (1770-1790م).. أما عن مصر، فإن جميع المذكرات تقريبا أيدت الاستيلاء عليها».

المهمة «الحضارية» لنابليون!

دائمًا ما تحاول القوى الاستعمارية أن تخفي وجهها القبيح بشعارات زائفة أمام الشعوب التي تستنزف ثرواتها.. فمثلًا تدَّعي كذبًا أنها جاءت لتعلمهم الحرية والمساواة والديمقراطية، أو لتخلصهم من الحكام المستبدين (نتذكر دعاوى بوش قبل غزو العراق!).. كما يؤكدون أن لديهم «مهمة حضارية» تجاه العالم، وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك كما قال نابليون عن نفسه في منشور وزعه على المصريين: «ولكن يأتي وقت يرى فيه جميع الناس أنني أهتدي بأوامر السماء». (بوش أيضًا كان يقول: إن الرب أمره بغزو العراق!)

لكن هل أفلحت تلك المنشورات في تزييف الوعي كما أراد أصحابها؟! يجيب الأستاذ جلال كشك قائلًا: رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية إلىٰ يومنا هذا، فإن نابليون كان صريحًا وواضحًا في تحديد مهمته في مصر، عندما قال: «سأستعمر مصر»!

«سأستعمر مصر، وأستورد الفنانين والعمال من جميع الأنواع والنساء والممثلين. إن ست سنوات تكفيني للذهاب إلىٰ الهند لو سارت الأمور سيرًا طيبًا».

لكن الأمور لم تسر سيرًا طيبًا، لأسباب عديدة، أهمها وأخطرها: أن الشعب المصري، أن أولاد العرب، أمة الإسلام، رفضت «المهمة الحضارية» لنابليون، عرفت دون جدل ولا لجاجة أنه قادم «لاستعمار مصر»، فقاومت هذا الاستعمار وأفشلته.

وحينما نزل نابليون الإسكندرية وأخمد مقاومة المدينة بالرصاص والسناكي والقتل والحرق، وزَّع منشورًا علىٰ الأهالي يبشِّرهم فيه أن «رب العالمين القادر علىٰ كل شيء قد حكم علىٰ انقضاء دولتهم (أي المماليك).. إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك، أعبد الله سبحانه وتعالىٰ وأحترم نبيه والقرآن العظيم.. وبعونه تعالىٰ من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية»!

فهذا الخداع والمكر لم يكن لينطلي علىٰ الشعب المصري لأنه كما يؤكد المؤلف «لم تكن هنالك فرصة لتضليل الجماهير، أو إخفاء طبيعة الصراع؛ وانفجرت مع الطلقة الأولىٰ ذكريات وتاريخ الحروب الصليبية بين الغرب والشرق».

ويقدم لنا الأستاذ كشك مفارقة عن تلك «المهمة الحضارية» التي زعمها نابليون، فيقول: «لم يكن لدىٰ المصريين الذين بقوا أحياء من سكان الإسكندرية حاجة إلىٰ قراءة المنشور حتىٰ لو أتيحت لهم الفرصة، فقد كانوا يرون المهمة التحريرية رأي العين، وليس من رأىٰ كمن قرأ. ولكن يبدو أن بعض حفدة «التراجمة» [أمثال لويس عوض] الذين استأجرهم كليبر، والذين صاغوا المنشور بلغة عربية ركيكة، يحاولون الآن، وبعد كل هذه السنين التي عشناها في ظل «الرسالة الحضارية» للغرب

الاستعماري، يحاولون اليوم الدفاع عن مهمة أجدادهم بإعطاء أهمية خاصة لهذا المنشور، ووصفه بأنه وثيقة خطيرة تعلن تحرر المصريين وقوميتهم.. مع أن نابليون نفسه وصفه في (سانت هيلانة) «بأنه قطعة من الدجل، ولكنه دجل من أعلىٰ طراز »، واعترف أن «علىٰ الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا؛ لأنه السبيل الوحيد إلىٰ النجاح».

المقاومة الشعبية الباسلة:

يسجل الجبرتي في تاريخه- وينقل عنه كشك فقرات مطولة- مقاومة الشعب المصري الباسلة للاحتلال الفرنسي، مبينًا أن هذه **المقاومة امتدت في أنحاء القطر المصري**، وشارك فيها **جميع طوائف الشعب**، فبمجرد أن دنس نابليون الإسكندرية بجنوده حتىٰ هبَّ المصريون لمقاومتهم بقيادة البطل محمد كريم- الذي أُعدم بعد ذلك- بالرصاص والأحجار، وأصيب كليبر ومينو.. حتىٰ إن المستشرق «هيرولد» ليشهد ببسالة هذه المقاومة فيقول: «**من النادر أن يُصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمسة الأولىٰ في أية حملة حربية!**».. وقُتل اللواء «ماس» وخمسة ضباط آخرون، وكتب الجنرال مينو: «**إن الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم**»، **وبحسب** تقرير بونابرت إلىٰ القيادة فإن «**كل بيت تحول إلىٰ قلعة**».

ثم جاء الرد الفرنسي عنيفًا ليقتل بلا هوادة- كعادته- دون تفرقة بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، ويذبح حتىٰ الذين احتموا بالمساجد.. ليفضح هذا العنف- كما يقول المؤلف- «المهمة الحضارية والرسالة التحريرية» التي زعم نابليون أنه مكلف بها، وجاء إلىٰ الشرق لنشرها!

ولم يكن أهل القاهرة- حين دنسها نابليون بعد ذلك- أقل بسالة من أهل الإسكندرية، ولا أقل نصيبًا من وحشية الفرنسيين وهمجيتهم!.. وتأتي هنا شهادة المسيو «ريبو» دالة كأعمق ما تكون الدلالة إذ يقول: «كان الجنود يعملون علىٰ إخماد الثورة بإطلاق الرصاص علىٰ الفلاحين، وفرض الغرامات علىٰ البلاد لكن الثورة كانت كحيّة ذات مائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرىٰ أقوىٰ وأشد مما كانت، فكأنها تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلىٰ بلد آخر

ويلخّص المؤرخ عبد الرحمن الرافعي - كما ينقل عنه كشك - قوة المقاومة التي اجتاحت الريف المصري في الصعيد والدلتا بقوله: «وصفوة القول إنه لم يكن لأمة عزلاء لا سلاح معها، أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية في عهد الحملة الفرنسية».

ثم تطورت **المقاومة الشعبية** إلىٰ كيان منظم سُمي «**ديوان الشعب**» يرأسه الشيخ السادات ليجهز المتطوعين للقتال.. وكان هذا «الديوان» وراء تفجير ثورتي القاهرة الأولىٰ والثانية.. ولذلك أعدم نابليون ثمانين عضوًا من أعضائه مرة واحدة، مبررا فعلته الشنيعة بأنهم «كانوا قومًا ذوي تفكير عنيف متطرف»! (هل تغيَّرت الاتهامات بعد قرنين من الزمان؟!)

وبعد ثورة القاهرة الأولىٰ في أكتوبر 1798م، ثار غضب نابليون، وأمر مدفعية القلعة بأن تسدد نيرانها إلىٰ الأزهر وما حوله من أحياء هي مركز الثورة.. ثم دخلت الخيل الأزهر، وأعمل الفرنسيون سيوفهم وبنادقهم في طلبته وشيوخه، ونهبوا الكتب ومزقوا المخطوطات، ونهب بعضها اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال.. ثم اتخذوا الأزهر إسطبلًا للخيل! حتىٰ تشفَّع الشيخ الجوهري عند نابليون طالبًا خروج الخيل من الأزهر، فأمر بالجلاء ثم ألقىٰ القبض علىٰ عدد من المشايخ وقطع رءوسهم في سجون القلعة بل وأعدم شيخ طائفة العميان!

ثم جاء كليبر بعدما رحل نابليون إلىٰ غير رجعة، وفي عهده قامت ثورة القاهرة الثانية فكانت أشد وأعنف من الأولىٰ.. واستطاع الطالب الشجاع سليمان (الحلبي) أن يقتل كليبر وأن يثأر للأمة الإسلامية كلها.. فحكموا عليه بالإعدام علىٰ الخازوق بعد أن تُحرق يده وهو حيّ!

وبحرق الإنسان الحي والقتل علىٰ الخازوق، ختمت الحملة الفرنسية - كما يقول جلال كشك متهكمًا - صفحتها (الحضارية!) في مصر، منبِّهة كأعنف ما يكون التنبيه كلَّ الذين خدعتهم الشكليات، وغرَّرت بهم أبواقُ الاحتلال.. نبهتهم إلىٰ أن الاستعمار هو الاستعمار.. وأن الحكم الوحشي هو وسيلته الوحيدة في مواجهة تطلع الشعوب، وحرمانها من حقها في التحرر والاستقلال.

التحدي مازال قائمًا:

كثيرة هي «الإضاءات» التي استطاع الكتاب أن يسلطها على مناطق «معتمة» في تاريخنا الحديث، بفعل المكائد التي تمارس لتشويهه كما أسلفنا.

فقد بين أبعاد الغزوة الفرنسية، أو اللقاء الأول بيننا وبين الغرب المتقدم، وأبعاد المقاومة التي شنها الشعب المصري ضد الغزاة المحتلين، وكيف كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة نقية الجوهر،لم يتم بعد تغريبها ولا تدجينها، ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع.

وأوضح كيف أن بذور «**البعث الحضاري**» المنشود كانت موجودة في طيات هذه المقاومة، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري، ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت «التنظيمات الوطنية »، وفي الثورة الثانية أوشكنا أن ندخل عصر «الانقلاب الصناعي» عندما صنع أجدادنا المدفع والبارود.

وفي معارك الصعيد ودمنهور ولدت «**الوحدة العربية** » عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد «سليمان الحلبي»، الذي جاء من حلب ليثأر لمصر من كليبر السفاح.

كما كشف زيف ما يروج عن الدور الحضاري الذي لعبته الحملة الفرنسية، ملقيًا الضوء على أعمال التنكيل الوحشي التي ارتكبها جيش الاحتلال ضد المواطنين، ثم كيف كان موقف الإدارة الفرنسية استعماريًّا تقليديًّا عندما رفضت تشغيل المصريين في مصنع للجوخ خوفًا من أن يتعلم المصريون الصنعة!

أما الدرس الأكبر الذي نستخلصه من هذه الصفحة المؤلمة من صفحات تاريخنا، فهو - كما يؤكد جلال كشك- أن الحملة الفرنسية كانت بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغربُ به الشرقَ الإسلاميَّ.. التحدي الذي لم يُجب عليه إلى الآن، سواء بسحقه أو الفناء فيه..

غير أن هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة، بالرغم من أنه لم يصل

بالاستثارة إلىٰ المستوىٰ الذي يُمكِّن الأمة من التغلب علىٰ التحدي وقهره، ومن ثم تحقيق البعث الحضاري، وتخطِّي حافة الخطر.. كما أن هذا التحدي في المقابل لم ينجح في سحق مقاومة الأمة نهائيًا.

وللأسف، فإن الأمة العربية والإسلامية ما زالت تواجه هذا التحدي بنوبات من الانفعال، وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض- كما هو حالها الآن تجاه فلسطين، وتجاه قضاياها المصيرية الأخرىٰ- دون أن تصل الأمة إلىٰ مستوىٰ الرفض الشامل، والمقاومة البنّاءة ذات النفس الطويل.. ودون أن يتوافر عندها الوعي العميق بمؤهلات التمكين وموجباته.

obeikandl.com

من صور لقاء الشرق والغرب
المفكِّرون الغربيّون الذين أسلموا

يجب أن نعترف- بكل أسف- أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يُعْنَ برصد وتسجيل ظاهرة (إسلام المفكرين الغربيين)، وسبر أغوارها، وتتبعها في عمقها وانتشارها؛ ولم يوفها حقها من النقد والتحليل ، فضلا عن أن يضع في تصوراته وخططه كيفية الاستفادة من جهود هؤلاء المفكرين في فهم الواقع المعاصر بأبعاده وتشابكاته، وفي نقد الحضارة الغربية، وتعريتها، وكشف مواطن الضعف فيها.. تلك الحضارة التي لم يجد فيها الباحثون عن الحقيقة المجرَّدة ما يروي ظمأهم الروحي، ويشبع حاجتهم الفطرية، ويهدي عقولهم الحائرة ، بعد أن شقت بهم وتاهت في منحنيات الإلحاد، وظلمات الفكر المادي؛ لأنها حضارة تحلق بجناح واحد هو جناح (**المادة**)، وتتجاهل افتقاره وحاجته لجناح (**الروح**)، حتىٰ غدت حضارة مؤهلة للانتحار، علىٰ حد قول المفكر الفرنسي **رجاء جارودي**.

ربما وُجدت بعض الدراسات التي تناولت المسيرة الفكرية لبعض هؤلاء المفكرين؛ مثل ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود في (**أوروبا والإسلام**) ، والدكتور محمد سعيد البوطي في (**شخصيات استوقفتني**)، والمستشار محمد عزت الطهطاوي في (**في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين**).. لكنها علىٰ أية حال دراسات متناثرة لم ترق إلىٰ مستوىٰ الجهد المأمول، وتدور في فلك شخصيات معدودة؛ بحيث يمكن أن نقول إنها تعاملت مع الظاهرة من منظور جزئي لم يستوعب انتشارها الواسع، ودلالاتها المتعددة.

وقد أضاع الفكر الإسلامي المعاصر- بهذا التجاهل أو التقصير في رصد الظاهرة- واحدة من أهم الوسائل التي كان من الممكن أن تسهم بفاعلية في بيان الوجه الحضاري للإسلام، وفي الكشف عن مقوماته ذات (الديناميكية) المتجددة، وفي

تأكيد قدرة الإسلام- كمنهج حياة، وسلوك مجتمع، وقانون دولة، وثقافة حوار وتعايش- على مخاطبة أرقى العقول البشرية، ومجاوزة حدود الزمان والمكان ، باعتباره الدين الخاتم الذي شُرِعَ للناس كافة.. والتي كان من الممكن أن تسهم أيضًا في بيان أن **الإسلام ليس مجرد أطروحة من الأطروحات، أو بديلًا من البدائل، بل هو البديل** كما يقرر السفير الألماني **مراد هوفمان**.

إن أهمية شهادات المفكرين الغربيين- خاصة فيما يتصل بنقد الحضارة الغربية- تكمن في أنها **شهادات وُلِدَتْ من (رَحِم المعاناة)، وليس من حوارات الترف الفكري والجدل البيزنطي**.. فأصحاب هذه الشهادات قد خبروا الحضارة الغربية، واكتووا بنارها، وأُصيبوا بشررها، وطالت رحلتهم في البحث عن الحقيقة حتى وجدوها في الإسلام، فجاءت شهاداتهم تلك بمثابة **(شهادة عيان)** تدل بصدق ووعي على عمق الأزمة التي أحاطت بالحضارة الغربية، وعلى قتامة الطريق المسدود الذي أوصلت إليه الإنسانَ المعاصر.

لقاءٌ ممكن:

لئن كانت جَرَتْ على الألسنة مقولة الشاعر الإنجليزي (**كبلنج**)- حتى صارت مثلًا!- وهي أن **الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا** .. فإننا نستطيع أن نقول- بكل ثقة- إن هذا اللقاء ممكن وجائز، وغير مستحيل لا عقلًا ولا شرعًا ولا تاريخًا! بشرط أن تبتعد عنه (السياسة) بصخبها، ومؤامراتها، وصدامها، ووسائلها الخبيثة التي لا تفتأ تعمل على تشويه الآخر- خاصة الإسلام- وإلصاق التهم به ظلمًا وعدوانًا؛ لأن **(السياسة الماكرة)** جعلت الحضارة الغربية حضارة عدوانية ، تبحث دائمًا لا عن **صديق** مخلص، ولا عن **شريك** تتبادل معه المنافع، بل تبحث عن **عدو** ، توجِّه إليه سهامها المشْرَعة باستمرار، وآلاتها التدميرية الإبادية، فهي حضارة ترى في وجود هذا العدو حلًا لتصدير أزماتها الداخلية المركَّبة، وسوقًا رابحة لتجارة الأسلحة.

بل يمكننا أن نقرر- دون تجاوز أو مبالغة- أن هذا اللقاء قد تمَّ فعلًا بإسلام المفكرين الغربيين، الباحثين عن الحق، والمتشوِّقين لإرواء ظمأ الروح، والراغبين

في الخلاص من الدوران في الحلقة المفرغة بين الإنتاج والاستهلاك، دون الالتزام بقيم تستطيع أن تجعل للحياة معنىٰ- كما يقول جارودي- أو أن تحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته، فالتقىٰ- بإسلامهم- العقلُ المتحرر من القيود والأوهام بالقلبِ النقي، والفطرةِ السليمة، والمنهجِ الرباني الذي يهدي للتي هي أقوم.

فهؤلاء المفكرون يمثِّلون صفحة نقية من صفحات (اللقاء والحوار) بين الشرق والغرب، بل هم أنصع الصفحات!

لقد سبق أن التقىٰ الغرب بالشرق، ولمس آثار الحضارة الإسلامية عن قرب، وعاين أخلاق المسلمين؛ في صدقهم، ووفائهم، وحفظهم للعهود، وإكرامهم لمن يعيش بين أظهرهم- حتىٰ وهو علىٰ غير دينهم- في قرطبة، وطليطلة، وجنوب فرنسا، وغير ذلك من محطات اللقاء والحوار... فما أُكرهوا علىٰ ترك دينهم، ولا ظُلموا في أموالهم وأعراضهم، ولا مُنعوا أيّ حق وَجَب لهم، ولا مُورست ضدهم حملات تهجير ومراقبة واضطهاد، كما يحدث الآن مع الأقليات المسلمة في أوربا وأمريكا، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وحتىٰ لا يكون ثمة اتهام بالانحياز إلىٰ حضارتنا، من دون أن تقوم دلائل مؤكدة علىٰ انحيازنا لها، وإيماننا بها.. فإننا نورد هنا شهادة أحد المستشرقين الذين تابعوا عن عمق مسيرة الحضارة الإسلامية، وهو **(غوستاف لوبون)** في كتابه المهم **(حضارة العرب)**، الذي يرصد فيه مظاهر التحول الجذري- المعنوي والمادي- الذي أحدثه المسلمون في بلد مثل الأندلس، كمثال واضح علىٰ تفرّد حضارتهم، وسموّ قيمهم، ورقي معاملتهم لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرىٰ.

يقول لوبون: «استطاع العرب أن يحولوا إسبانيا، ماديًا وثقافيًا، في بضعة قرون، وأن يجعلوها علىٰ رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانيا علىٰ هذين الأمرين، بل أثروا في أخلاق الناس أيضًا ، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإنْ شئت فقل حاولوا أن يعلموها، التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان، وبلغ حِلْمُ عرب إسبانيا نحو الأهلين المغلوبين مبلغًا كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عُقد في سنة

782م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة 852م. وتُعدُّ كنائس النصارىٰ الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي، من الأدلة علىٰ احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثير من النصارىٰ، ولكنهم لم يُسْلموا طمعًا في كبير شيء، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم علىٰ تقلد مناصب الدولة. وكانت إسبانيا العربية بلد أوربا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيرًا جدًا»[1].

حوار لا صدام:

ومما هو جدير بالملاحظة والإكبار معًا، فيما يتصل بالمفكرين الغربيين الذين أسلموا، أن كثيرين منهم قد أكدوا ضرورة الحوار بين الشرق والغرب وأهميته، ولم ينساقوا وراء من يُروِّجون لحتمية الصدام بين الحضارات؛ لأنهم قد خلصوا من خلال تجربتهم ومعاناتهم، ومن خلال دراساتهم المستفيضة للتاريخ البشري، سِلْمًا وحربًا، إلىٰ أنه لا بديل عن الحوار والتعاون بين أبناء الحضارات المتعددة، وأنه لا يمكن أن يَحُول اختلافُ الألوان والألسنة والأعراق دون التعارف والتعاون، فتلك سنَّة من سنن الله الثابتة في خلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

كما وجد هؤلاء المفكرون- بالإضافة إلىٰ تجربتهم ومعاناتهم- في الإسلام وما يصوغه من تصورات ورؤىٰ ذات صبغة إنسانية وعالمية، المنقذَ والبديلَ عن المكائد والمؤامرات، التي تريد أن تخطف ركب الحضارة الإنسانية وتلقي به في أتون الصراع والمواجهة، تحت دعاوىٰ ونظريات عنصرية، مثل نهاية التاريخ وسيادة النموذج الغربي وحتمية الصدام، وتحت أطماع لا حدود لها، ولا تبالي بأن تضحِّي بأكثر من نصف البشرية (الفقراء) في سبيل راحة السادة والأغنياء.

---

(١) ص 276، 277، ط مكتبة الأسرة سنة 2000م.

وقد قدموا في ذلك دراسات ورؤىٰ جديدة بأن تكون محلَّ نظر وعناية، وأن يُستفاد منها ويُبنىٰ عليها.

وفي هذا المجال تبرز جهود المفكر **رجاء جارودي** الذي أسس- من قبل أن يسلم- مع منظمة اليونسكو «**المعهد الدولي لحوار الحضارات**» في عام 1976م. وقد ذكر أن من أهداف هذا المعهد «**إبراز دور البلاد غير الغربية وبخاصة الإسلامية وإسهامها في الثقافة العالمية، حتىٰ يتوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب، أو (المونولوج) الذي يقوم علىٰ وَهْمِ وعقدة التفوق عند الإنسان الغربي**»[1].

ويرىٰ **جارودي** أن ما يمنع الغرب من الاعتراف بالدور الثقافي الذي أسدته الحضارة الإسلامية إليه، وساهمت به في تطور حضارته علىٰ النحو المعاصر، هو ما تكنه أوربا للإسلام من كراهية حتىٰ اليوم، لأن الاستشراق- وهو نافذة الغرب المعرفية علىٰ الإسلام- لم يدرس الإسلام من أجل الوقوف علىٰ حقيقته، بل اهتم به من أجل الصراعات الأيديولوجية.. ولذا يؤكد جارودي أن **الحوار بين الحضارات محكوم عليه أن يسلك طريقًا مسدودًا، إذا ظلَّت عقيدة أحد أطرافه غير مصقولة من صدأ قرون السيطرة والاضطهاد.**

وإزاء محاولات (تمييع الحقائق) التي نراها في الحوارات التي تجري الآن بين بعض المسلمين والغربيين- والتي بسببها مازالت تلك الحوارات تراوح مكانها، ولا تُؤتي الثمرة المرجوّة منها- فإن **جارودي** يتخذ موقفًا أكثر صراحة وصدقًا مع الذات، ومع حقائق التاريخ التي لا تحابي أحدًا، فيؤكد أن الغرب مُطالَب- بأكثر من ذي قبل- أن يعيد النظر في موقفه المتصلب والمتغطرس من الإسلام والمسلمين، فيقول بكل وضوح: «**يجب أن يدرك الغرب أنه مَدِين للحضارات الأخرىٰ وخاصة الحضارة الإسلامية.. وأن الحضارة الإسلامية أعطت الغرب أكثر وأخصب مما أعطاها المصدران الآخران: حضارة اليونان والرومان. وأن النظرة الغربية للإسلام تنطوي علىٰ مغالطات متوارثة، بعضها متعمَّد وبعضها مبطن، فالعرب لم يكونوا غزاة**

(1) من حواره مع مجلة «الأمة»، عدد 29، ص" 67، فبراير 1983م.

ظالمين، ولم ينقلوا [في عقيدتهم] من الأديان السابقة، ولم ينتشر دينهم بقوة السلاح ، وقد آن الأوان لتبديد جميع هذه المغالطات، وإحلال الحقيقة محلَّها» [1].

نداءٌ للعقلاء:

لقد ظلت العلاقة بين (الشرق والغرب) مشحونة بالكثير من العداوات والحروب، مما رسَّب تشوهات كثيرة ما زالت متجذرة في (الوعي الجمعي) لدىٰ كل منهما، وقد كان للغرب– بشهادة المنصفين من أبنائه المستشرقين– الإسهام الأكبر في تشوّه تلك العلاقة، عبر حروبه الصليبية التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان، وعبر موجات الاحتلال والإغارة علىٰ البلاد الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وأيضًا عبر تجدد عدوانه في الواقع المعاصر، كما نرىٰ في العراق وفلسطين وغيرهما.

لكننا مع كل ذلك، يجب ألا نظل أسرىٰ للمتهورين ومصاصي الدماء والمتاجرين بحرية الشعوب، ويجب أن يتنادىٰ العقلاء من كلا الطرفين بضرورة وقف نزيف الدماء، وبضرورة طيّ صفحة العداوات.. **لتبدأ مرة أخرىٰ في تاريخ الإنسانية صفحةُ اللقاء والحوار والتعارف والتعايش.. وما ذلك علىٰ العقلاء بعسير.**

(١) نقلًا عن مقال «بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية » للأستاذ أنور الجندي، مجلة «الهلال»، ص: 9، 10، مارس 1983م.

المرأة بين الإسلام والغرب
تجاربُ من رَحِم المعاناة

من المؤكد أن التعرف على الدوافع التي كانت من وراء إسلام الغربيين، يمنحنا رؤية ثاقبة بحقائق ديننا، وعوامل تميّزه وتفرّده التي قد نجهلها- نحن الذين وُلدنا مسلمين- لطول الألفة والعشرة بها.

كما أن معرفة هذه الدوافع توقفنا من ناحية أخرى، على عمق الأزمة التي أوصلت إليه الحضارةُ الغربية الإنسانَ المعاصر، وعلى النتائج الكارثية لهذه الحضارة المادية الإباحية؛ لأنها تجاهلت المعاني والغايات والقيم، واكتفت بالمادة وبريقها الزائف.

كثيرة تلك الأسباب التي تقف من وراء إسلام الغربيين.

* فقد تكون هذه الأسباب راجعة إلى **صفاء العقيدة الإسلامية**، ووضوحها، وخلوّها من الغموض والتعقيد اللذين يكتنفان العقائد الأخرى، كتلك التي تُطالب الإنسان بأن يعتقد وهو أعمى، لا عقل له، ولا تمييز لديه.

* وقد ترجع إلى **قدرة الإسلام على إشباع حاجات الإنسان الروحية والجسدية معًا** والسمو به إلى درجات عليا من الصفاء النفسي، والألق الروحي.. ولا غرو، فالإسلام يلبي أشواق الروح ويعلو بها، دونما افتئات على قواعد العقل، وحقوق الجسد، ومقررات الفطرة السليمة، بعكس ما تدعو إليه الفلسفات والمذاهب التي تزعم أنها ترتقي بالروح، بينما هي في الحقيقة ترتكس بها إلى أسفل الدركاتحين تجعلها تهيم في عالم ليس له منطق، ولا تفكير يحكمه، إنما هي تُرَّهات ومحض تهويمات.

* وقد تتمثل في **عبقرية النظام الإسلامي وتفرده**، سواء الاجتماعي منه أو الاقتصادي، فالإسلام في كليهما- كما في غيرهما- يراعي في اتزان ووسطية حقوق الفرد وحقوق المجتمع، سواء بسواء، فلا يبخس الفرد حقه، ولا يعطي المجتمع فوق ما يستحق، إنما يربط الفرد بالمجتمع في علاقة تكاملية، بحيث يعرف كلٌّ منهما

ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

غير أن ما نريد أن نلفت النظر إليه في هذا المقام، هو أنه برغم الواقع المتدهور الذي يحيط بالمرأة في عالمنا العربي والإسلامي، بفعل عوامل كثيرة ليس من بينها قطعًا الإسلام، وإنما هو سوء الفهم عن الإسلام!.. فإن **رؤية الإسلام الناصعة للمرأة ولدورها في المجتمع، كانت من أهم العوامل التي دفعت الغربيين لاعتناق الإسلام، وإعلان الولاء له، وجعلتهم يرون فيه المُنْقِذَ من الضلال، والهادي وسط الظلمات الحالكة.. وتلك مفارقة تستحق أن نقف معها وقفات.**

وحدة الأصل وتكامل الأدوار:

إن الإسلام ينطلق في رؤيته للمرأة ودورها من كونها جزءًا أصيلًا من المجتمع، فهي نصفه، وفي الوقت نفسه تلد النصف الآخر، وتقوم على تربيته.. فكيف يمكن إذن أن يتجاهل دورها المحوري والأساسي!

هو ابتداءً يقرر وحدة الأصل للرجل والمرأة، لأنهما خُلقا من نفس واحدة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء).

كما يقرر في وضوح أن **النساء شقائق الرجال** (1)، وأن المرأة مكلفة ومأمورة مثل الرجل، ولا تقلّ عنه في الحقوق والواجبات، وإنْ كان لكل منهما المجال الذي يتحرك فيه، مما يتناسب مع طبيعته النفسية والجسدية، ومع وظيفته الاجتماعية، فهما يتكاملان في الأدوار ولا يتناقضان في الأهداف والغايات، أما الاختلاف بينهما فيقع في الوسيلة التي يسلكها - أو ينبغي أن يسلكها- كل طرف منهما لأداء دوره المنوط به في تحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض.

وقد جاءت النصوص في ذلك متواترة ومتضافرة، تقطع كلَّ شك، وتزيل كلَّ سوء تفسير وتأويل، ويكفي للدلالة على هذا قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ

(1) أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن أم سليم بنت ملحان أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ».

أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ ﴾ (آل عمران: 195)، وقوله سبحانه أيضًا: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١ ﴾ (التوبة).

أما في الغرب فإنهم كانوا يختلفون إلىٰ وقت قريب في كون المرأة إنسانًا، أو شيطانًا، أو حيوانًا؟! وهل لها روح مثل الرجل أم لا؟! ثم انتهوا بعد مناقشات ومجادلات إلىٰ أن المرأة إنسان خُلق لخدمة الرجل، وليحصل منها التناسل فقط!

ولذلك ينبغي ألا نندهش كثيرًا حين نرىٰ المرأة في الغرب قد تحولت- أو بالأدق: حُوِّلتْ- إلىٰ سلعة تُباع وتُشترىٰ، شأنها شأن أي سلعة مادية لا روح فيها، فهُن جسدها، واستُخِفَّ بعقلها، واستُغِلّت أسوأ استغلال تحت ستار خادع من الشعارات البَّراقة الزائفة.

تكريم معنوي ومادي:

إن مطالعة شهادات الغربيين الذين أسلموا ، أبلغ في الدلالة علىٰ رؤية الإسلام للمرأة، ولدورها الحضاري في نهضة الأمة؛ لأن شهادات هؤلاء الغربيين تجارب لها مصداقيتها ووزنها ، باعتبار أنها وُلدت من (رَحِم المعاناة)، وتشكَّلت من خلال معايشة الواقع الأليم ومصارعته، بجانب القراءات المستفيضة عن الإسلام وأيضًا في الإسلام.. وهي بذلك شهادات جديرة بالاهتمام والرَّصد والتحليل.

من هذه الشهادات شهادة السيدة الإنجليزية «**أليسون محمود**»، التي تتحدث عن تجربتها ورحلتها مع الإسلام فتقول: «كان أعظم ما عرفتُ ، وضع المرأة في الإسلام، والمكانة الرفيعة التي تتمتع بها، وهي المكانة التي لم تَرْقَ إليها المرأةُ الغربية بعد، بلا أية مبالغة، يكفي أن نعلم أن للمرأة في الإسلام شخصية لها تقديرها، لقد سميت سورة باسمها وهي سورة «**النساء**»، وفيها ما يخص المرأة في الزواج، والإرث، والطلاق، وكيف يرعىٰ الإسلام حقوق المرأة، التي هي شريكة للرجل في رحلة كفاحه»(1).

---

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد، 3/ 103، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1995م.

وبالإضافة إلىٰ التكريم (المعنوي) الذي قرره الإسلام للمرأة، وأعاد به إليها شخصيتها الملغاة، فإنه كرَّمها أيضًا (ماديًا)، فاعترف لها بذمتها المالية المستقلة، وأكدَّ حقها في التملك، وممارسة البيع والشراء وسائر العقود المالية، بالرغم من أنه أوجب نفقتها في جميع حالاتها - سواء أكانت أمًا أم أختًا أم زوجةً أم بنتًا - علىٰ الرجل - أبًا كان أم أخًا أم زوجًا أم ابنًا - وبالرغم أيضًا من أنه جعل عمارة الأرض، بما تتطلبه من كدح وتعب ونصب، منوطة بالرجل وحده.. فكانت خِلْقَةُ الرجل - من قوة البدن، والقدرة علىٰ تحمّل المشاقّ، وغلبة العقل علىٰ العاطفة - مناسبةً ومتماشيةً مع المهمة التي كُلِّف بها، وأُنِيطَتْ به دون المرأة.

ولذلك خاطب الله أبا البشرية آدم حين أخرجه مع أمّنا حواء من الجنة، مُعْلِمًا إياه أنه وحده الذي تقع عليه مسئولية التعب والشقاء، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ (طه).

ويؤكد المفكر الفرنسي «رجاء جارودي» تميزَ الإسلام في إعطاء المرأة حقوقها المالية مقارنة بالغرب، فيقول: «إن القرآن منح المرأة حق امتلاك الأموال دون قيد أو شرط، بينما لم تنل هذا الحق في أغلب تشريعات الغرب إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين»[1]. ولما سُئل الكولونيل «دونالدس روكويل» عما أعجبه في الإسلام ذكر أسبابًا عدة، منها: «الإقرار الرائد بتقرير حق الملكية للمرأة»[2].

ثمة شهادة أخرىٰ مهمة في هذا الصدد؛ لأنها تُبدد بكلماتها الموجزة أوهامًا، لطالما أُلصقت زورًا وبهتانًا بالإسلام والمسلمين، وثار حولها منذ زمن بعيد لغطٌ كثير لم ينتهِ بعد، بل نراه يتجدد من حين لآخر، بمناسبة وبدون مناسبة! مثل: حق القوامة للرجل، وفريضة الحجاب علىٰ المرأة، ونصيب المرأة من التعليم والمشاركة بفاعلية في الحياة بصفة عامة.

---

(1) من كتابه «مبشرات الإسلام» نقلا عن مجلة «الأمة» القطرية، عدد 24 ذي الحجة 1402 هـ، ص: 21.

(2) في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص: 200، دار التراث ط 1، 1979م.

تقول الفتاة الفلبينية «**أوليفا أبرازادور**»: «لقد عرفتُ منهن [أي من اختلاطها بالمسلمات] أن الإسلام قد كرَّم المرأة، وأعطاها من الحقوق ما لم تحصل عليه المرأة في المجتمعات التي تدين بديانات أخرىٰ، وأدركت تمامًا أن (**القوامة**) لا تعني انتقاص المرأة، بل هي تقدير لظروف أنوثتها وضعفها؛ لأنها تفرض علىٰ الرجل أعباء قد تعجز المرأة عن تحملها بحكم تكوينها الغريزي الأنثوي. كما أدركت أن (**الحجاب**) هو صون وعفاف للمرأة، وارتقاء بها وبروحها من أن تكون مجرد جسد تنهشه الذئاب البشرية.. وإنني أتذكر أن الطبيبة التي عالجتني حين مرضت، كانت امرأة مسلمة ومحجبة، ولم يمنعها الحجاب من دراسة الطب والتفوق فيه»[1].

نقد الحضارة الغربية:

ومما هو جدير بالتقدير فيما يتصل بشهادات الغربيين الذين أسلموا، أنها شهادات لم تقف عند بيان عظمة الإسلام والإشادة به، بل تعدَّت ذلك إلىٰ نقد الحضارة الغربية المعاصرة، وبيان زيفها وتهافتها، خاصة فيما يتصل بالمرأة والأسرة، تقول السيدة «**حرفية بال حليم**»: «ما حدث في الغرب هو أن تيار الأنوثة [أي حركة تحرير المرأة] قد سلب المرأة حقوقها كامرأة، فقد أجبرها علىٰ الذهاب إلىٰ العمل، وقلَّل عدد الزيجات تدريجيًا، وهذا أمر يقوم الإسلام بتوفير الحماية منه. وأشعر الآن بأنني أكثر حرية، فقد أصابني الاضطراب بشأن القيم التي يتمسك بها مجتمعنا، فهو يتوقع أن تكون المرأة رجلاً وامرأة! وأن تكون مُغْرية وفاضلة! وأن تكون جميلة وذكية وأيَّ شيء آخر!»[2].

كما تؤكد السيدة البريطانية «**ميشيل**» - التي أسلمت وتسمت بـ «**جميلة**» - هذا المعنىٰ، وتنصح المرأة المسلمة قائلة: «يجب أن تعرف المرأة المسلمة أن حرية المرأة في أوربا ليست حرية حقيقية، فليس لها حقوق متساوية في الأجر والعمل مثل الرجل.. كما أن الرجل هنا لا ينظر إلىٰ المرأة نظرة تقدير واحترام.. هو فقط ينظر إلىٰ

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، 3/ 121.

(2) صحيفة «الصنداي تليجراف» البريطانية نقلاً عن مجلة «الرسالة» المصرية، عدد 2، ص: 76، ذي الحجة 1422هـ.

جمالها وفتنتها، ولا يفكر فيها إلا كشريكة في الفراش!»[1].

فأين الذين ينادون في عالمنا العربي والإسلامي بحرية المرأة- وهم لا يريدون إلا حرية منفلتة من أية ضوابط- ويتخذون من الغرب قدوة لهم .. أين هم من هذه الحقائق، التي تُطْلعنا بصدق وعمق على الواقع المرير الذي تحياه المرأة في الغرب!

الإسلام غير المسلمين:

على أنه يجب في هذا الصدد تأكيد أن واقع المرأة المتدهور في عالمنا العربي والإسلامي، هو أمر لا علاقة له بالإسلام وتعاليمه وحقائقه؛ لأنه- كما رأينا توًا- ليس ثمة دين أنصف المرأة مثل الإسلام، وإنما يرجع هذا الواقع البئيس إلى الفهم المغلوط للإسلام، وإلى التطبيق الخاطئ لما شرع الله من أحكام وتوجيهات.. ولذلك يجب التفريق بين الإسلام كدين سماوي متكامل في أهدافه وتشريعاته، ومُنَزَّه عن الخطأ والتحيز لجنس أو نوع، وبين واقع المسلمين كسلوك بشري قد يقترب أو يبعد قليلًا أو كثيرًا عن المبادئ والقيم التي يدعو إليها.

ثم إن تقدم وضع المرأة أو تراجعه إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا برقي المجتمع كله أو بتخلفه، إذ من غير المعقول أن تنال فئة واحدة حقوقها دون تقدم المجتمع بفئاته المتعددة؛ لأن المجتمع في المحصلة هو نسيج واحد تنتظم فيه جميع الفئات، وتسير في خطوط متوازية، يأخذ بعضها بأيدي بعض.

ويشير إلى هذه الحقيقة المستشرق المنصف «**هستون سميث**» بقوله: «أما حقوق المرأة المدنيَّة في العلم والانتخاب والعمل، فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة، التي تنالها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها، فإذا كانت المرأة المسلمة لم تنل تلك الحقوق بعد قرن أو بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوربية، فهذه أيضًا- أي المرأة الأوربية- لم تنل حقًا منها قبل عصر الصناعة الحديثة، وإنما نالت هذه الحقوق من الديمقراطية لا من الدين فلم يَجُزْ- كما يقول المسلم- أن يكون الإسلام مسئولًا عن هذه الحال»[2].

---

(1) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، 3/ 70.

(2) نقلًا عن «الإسلام دعوة عالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد، ص: 112، ط مكتبة الأسرة 1999م.

أدري أن قضايا المرأة وإشكالياتها في عالمنا العربي والإسلامي تدور في حلقة مُفْرغة، بفعل الدسائس والمكائد التي يجتمع عليها أعداءُ الداخل من العلمانيين والمغرضين، وأعداءُ الخارج من المتربصين، خاصة المنظمات الدولية ذات الدور المشبوه؛ ولذا ما يكاد ينتهي الجدل حول إحدىٰ هذه القضايا حتىٰ يتجدد وبسرعة حول قضية أخرىٰ! وهكذا دواليك!

ولكني أردت أن أضع أمام الجميع - المتغرِّبين أو غيرهم من بني جلدتنا - هذه الشهادات الناصعة للغربيين الذين أسلموا ، التي كما ذكرتُ وُلدت من (رَحِم المعاناة) - لعلَّ أن يكون في صدقها وواقعيَّتها وعمقها ، ما يرشد الحائر، ويهدي الضَّال، ويدل علىٰ الصواب.. ويقيم الحجَّة علىٰ المعاندين..

obeikandl.com

العمرانُ الإسلامي في عُيونِ الغربيين

يخطئ من يظن أن الأحجار صماء، لا تنطق ولا تُبين.. كلا، إنها وبقية نظائرها من المعادن، والأخشاب، والتراب، تحكي قصة الحضارة، وتشهد على القيم التي تنشأ في أحضانها، وتدل عليها..

ولذلك تتميز حضارة عن أخرى، ليس بما تحمل من قيم ومبادئ فحسب، بل بما تخلِّف من آثار وعمران تكون وجهًا آخرَ لتلك القيم والمبادئ.. وما يصدق بحق الإسلام، يصدق بغيره من الملل والنحل.

والعُمران مصطلح أشمل من العِمارة التي هي الأبنية ، مثل المساجد والقصور والتكايا.. بينما العمران يشمل كل ذلك، إضافة إلى أنواع أخرى كثيرة، مثل النحت، وصناعة الأواني والخزف، والزجاج الفني، والنجارة.. هذا بجانب ما يحمله مصطلح «العمران» من دلالات معنوية حضارية تنطق بها تلك الشواهدُ المادية.

وقبل أن نتناول العمران الإسلامي وجمالياته في عيون المفكرين الغربيين، من المهم أن نشير إلى ملاحظتين أساسيتين:

الأولى : أن العمران الإسلامي بفنونه المتعددة قام على أساس من العقيدة الإسلامية، التي أُسِّست على التوحيد، فجاءت المساجد في بساطتها وروعتها تعكس وضوح العقيدة الإسلامية وصفاءها، بخلاف الكنائس التي تعكس عمارتها تعقيد المسيحية وتحريفها. وعرف المسلمون وأبدعوا فن «الأرابيسك» الذي يعكس فكرة التجريد واللامتناهي، لا التجسيد؛ تأثرًا بالتوحيد وبعدم قدرة الإنسان على الإحاطة بالذات الإلهية.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العمارة الإسلامية تمتاز بخصيصة أساسية تعرف بخصيصة (الجَوَّانية)، فأي مبنى سواء أكان مسجدًا أم مدرسة أم مسكنًا، يحمل الطابَع الجَوَّاني، بمعنى أن عمارته الخارجية أقل شأنًا من عمارته الداخلية ، ونرى

ذلك في المساجد الأولىٰ، كالجامع الأموي بدمشق وجامع عقبة في القيروان وجامع قرطبة، كما نراه بشكل شامل في المساكن والقصور. إن خصيصة الجَوّانية هذه تنسجم في المباني الخاصة، مع شاغل المبنىٰ الذي يبحث عن مجال خاص به يستقل فيه عن العالم الخارجي، ولذلك فهو يغني هذا المجال الداخلي بأروع الزخارف والأثاث المعماري، ويهمل الواجهات الخارجية لأسباب كثيرة أبرزها رغبته بعدم التظاهر والتفاخر والمضاهاة[1].

وهذه الخصيصة توفر أيضًا الستر والخصوصية لأهل البيت، حيث تطل منافذهم علىٰ الداخل، ويسترون عن عيون المارّة، بعكس العمارة الحديثة.

وقد التفت المفكرون الغربيون إلىٰ إبداع العمران الإسلامي، وتجديده، وقدرته الهائلة علىٰ تجسيد قيم الحضارة التي انبثق منها.. وسنعرض فيما يلي لشهادة ثلاثة من هؤلاء المفكرين: لوبون، جارودي، هوفمان.

لوبون.. الفنون مرآة المجتمعات

يعد جوستاف لوبون واحدًا من أبرز المستشرقين الذين رصدوا بإعجابٍ معالمَ الحضارة الإسلامية، من خلال سِفره الضخم "حضارة العرب"، الذي طوّف فيه بالمجالاتِ والمظاهر المتنوعة لتلك الحضارة التي امتدت علىٰ رقعة مترامية الأطراف، في عصور متعاقبة، راصدًا الإسهامات المتميزة التي قدمها المسلمون للعالم.

وهو يرىٰ أن الفنون مرآة المجتمعات، تعكس واقعها، وأنه إذا «كانت الفنون عنوانَ مشاعر الأمة وتصوراتها، كانت العواملُ القادرة علىٰ تحويلها كثيرةً كثْرةَ العوامل التي تؤثر في المجتمعات»[2].

ويشير إلىٰ ثراء الفنون العربية، الجميلة والصناعية، من العمارة، والنحت، وصناعة الخزف، والزجاج الفني، والفُسيفساء، والنجارة، وغير ذلك.. مؤكدًا أن

---

(١) د. عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، علىٰ الشبكة العنكبوتية.
(٢) لوبون، حضارة العرب، ص: 498، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، 2000م.

«مباني العرب أهمُّ آثار العرب الفنية»[1].

ويبين أن العرب في بداية حضارتهم وفنِّهم المعماري قد اقتبسوا من الفرس والبيزنطيين، لكنهم برأيه قد تحرَّروا من هذه المصادر، وانتهَوْا إلىٰ إبداع طراز مستقل خصب[2].

ومن خلال المقابلة بين مباني العرب في مختلف البلدان التي دانت لهم، يخلص لوبون إلىٰ أن تلك المباني يَظهر فيها «تماثُلها الذي نشأ عن وَحدة النظم والمعتقدات، ويظهر تبايُنها الذي نشأ عن اختلاف البيئات والعروق التي كانت تلك النظم والمعتقدات سائدةً لها»[3].

أي أنه يلفت النظر إلىٰ أن العمارة الإسلامية في مختلف البلدان تتشابه؛ لقيامها علىٰ نظام قيمي مستمد من المنهج الإسلامي. كما أنها تختلف وتتباين؛ لوجود مساحة من المرونة والانفتاح، تسمح بأن تتأثر تلك العمارة ببيئاتها المختلفة.

ولوبون، سواء في تأكيده قيامَ العمارة الإسلامية علىٰ نسق قيمي، أو في تأكيده انفتاحَ العمارة الإسلامية علىٰ غيرها من الثقافات، فإنه يتفق مع رؤية المفكر الفرنسي رجاء جارودي كما سيأتي بيانه.

جارودي.. جميع الفنون تؤدي إلىٰ المسجد

لقد أبدىٰ رجاء جارودي اهتمامًا مبكرًا بالعمارة الإسلامية وفنونها المتعددة، وسجل إعجابه بها بتفصيل ينم عن إحاطة ووعي، خاصة في كتابه: «في سبيل حوار الحضارات». والمفارقة أنه أصدر هذا الكتاب قبل أن يعلن إسلامه، وأراد به إنصاف الحضارة الإسلامية، وإبراز دورها الأصيل في قيام النهضة الغربية الحديثة.

يؤكد جارودي ابتداءً وحدة الفن الإسلامي، وارتباطه بالعقيدة الإسلامية القائمة علىٰ التوحيد، باعتباره- أي التوحيد- ركيزة أساسية تصبغ بطابعها ما يليها من

(١) المصدر نفسه، ص: 506، 507، باختصار.
(٢) المصدر نفسه، ص: 523، بتصرف يسير.
(٣) المصدر نفسه، ص: 523.

تفصيلات وتفريعات، فيقول: «الفن الإسلامي يعرب عن تصور للعالم يسود بآن واحد مصيره وصيغه ومفرداته التشكيلية وتقنياته»[1].

ويعاود التأكيد على تلك النقطة لأهميتها في كتابه «وعود الإسلام» فيقول: «إن نظرة واحدة- وإن كانت سطحية- على الشواهد الكبرى للفن الإسلامي في العالم، تكشف عمق وحدته وأصالته، فأيًّا ما كان الحيز الجغرافي المقام فيه الأثر أو غايته، فإننا نحس بأننا نعيش فيه التجربة الروحية نفسها»[2].

ويوضح جارودي أن مفهوم «التوحيد» قد أدى إلى أن ينطبع الفن الإسلامي بالتجريد، لا التجسيم، إضافة إلى الانفتاح على فنون الثقافات الأخرى.. وبالمقابل، أشار إلى أنه يمكن لمن يُجري استقراءً للفنون الإسلامية أن يهتدي إلى مفهوم «التوحيد» كخيط مشترك ينساب بين أنسجة تلك الفنون، فيقول: «هذا المفهوم عن التعالي الإلهي (التوحيد) يسود فنون الإسلام ويقودها إلى شكل مجرد (التجريد)»[3].

ويضيف عن تجربته الذاتية في فهم الإسلام من خلال الفنون الإسلامية: «إنني انطلاقًا من تأمل فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العقيدة الإسلامية، بتأكيدها الجذري على التعالي، وفي الوقت ذاته، على انفتاح، وعلى قبول لا يقتصر على سائر أُسر الإيمان الإبراهيمي وحسب، بل يمتد إلى إمكان حوار خصيب مع حكمة آسيا والهند واليابان»[4].

---

(١) جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص: 171، ترجمة د.عادل العوا، طبعة مكتبة الأسرة، 2013م.

(٢) جارودي، وعود الإسلام، ص: 144، 145، ترجمة د.ذوقان قرقوط، دار الرقي/ مكتبة مدبولي، ط2، 1985م.

(٣) جارودي، في سبيل حوار الحضارات، ص: 171.

(٤) المصدر نفسه، ص: 7. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن جارودي يقصد من «أُسر الإيمان الإبراهيمي»: الشرائع السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، لأنها تشترك في أنها- في الأصل- من عند الله سبحانه وترجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لكن دخل التحريف والتبديل على كثير من أصول اليهودية والمسيحية، بخلاف الإسلام الذي حفظه الله وارتضاه لعباده إلى قيام الساعة. ومن هنا، فمصطلح «الإيمان الإبراهيمي» قد يستخدمه البعض للتمويه على الاختلافات الجذرية بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى، بدعوى رجوعها جميعًا إلى نبي واحد.. وهذا خطأ فادح يجب الحذر منه.

أما عن جماليات العمارة الإسلامية، والتي تبدت كأوضح ما يكون في المساجد، فيشهد جارودي أن «المسجد بلا ريب هو المثل الرمزي الأعظم» للعمران الإسلامي وفنونه، وأنه «نوع من صلاة الحجارة، وملتقىٰ جميع فنون الإسلام. وقد أصاب القائلون إن جميع الفنون تقود في الإسلام إلىٰ المسجد، والمسجد إلىٰ الصلاة»[1].

ويلاحظ جارودي أن من بين السمات الأساسية للمسجد أن بناءه يرتبط بوظيفته، فهو «من حيث بنيته ذاتها، يستجيب لوظيفته. إنه لا يشبه الكنيسة المسيحية، ولا المعابد الإغريقية. إنه لا يصلح صندوقًا للاحتفاظ برفات قديس، ولا ديكورًا لحفلة شعائرية، وهو يريد أن يكون مجرد مصلًّىٰ لذكر الله. ومن هنا، نشأ شكله الأصيل، إنه لا يشبه في شيء خلية المعبد الإغريقي، ولا التصميم الطولاني للكنائس المسيحية. إنه أعرض ما يكون العرض؛ حتىٰ يتيح لأكبر عدد من المؤمنين أن يقابلوا المحراب، الذي يدل علىٰ القبلة نحو مكة».

مراد هوفمان.. البساطة والتجريد

أما السفير مراد هوفمان فقد شرح جماليات العمارة الإسلامية- خاصة بناء المساجد- علىٰ نحو يَسْترعِي الانتباه، يكشف عن مدىٰ الدقة والروعة والتناغم بين الحجر وبين إيحاءات العقيدة الإسلامية، التي تمتد خيوطها لتشمل كل نواحي الحياة.

يقول هوفمان: تثير العمارة الإسلامية في زخرفتها الخارجية والداخلية- رغم تنوعها الكبير- شعورًا بالمكان ذا طابع إسلامي مميز، يستوعب ملامحه البارزة والدقيقة، وهو ما يمكن للمرء أن يشهده- علىٰ سبيل المثال- في مباني وباحة قصر الحمراء في غرناطة، أو في المساجد المميزة مثل تلك التي توجد في قرطبة والقيروان والقاهرة وإسطنبول.

ويبين هوفمان أن الخاصية الإسلامية المميزة لهذه التجربة الفنية ترجع إلىٰ عدة عناصر، هي علىٰ وجه التحديد:

---

(١) المصدر نفسه، ص: 171.

* المثل الأعلىٰ الخاص بالبساطة في الواجهات الخارجية للقصور الإسلامية، والتي تكاد توحي للمرء بالمسلمة الجميلة التي تسدل الحجاب علىٰ وجهها عندما تغادر دارها.

* الطابع الديمقراطي اللاطبقي للإسلام الذي يغلب علىٰ تصميم أماكن العبادة الإسلامية.

* الدرجة العالية من التجريد، والتي تتفق مع جلال الله عن الوصف عند المسلمين.

* الأبعاد الإنسانية في تكوين النسب المعمارية، والتي تعكس حرص الإسلام علىٰ التوازن، والاعتدال، ومنهج الوسطية في معالجة كل الموضوعات.

* تجرد أماكن الصلاة من المناخ السحري، الذي يدل علىٰ خلو الإسلام من الطقوس والأسرار المقدسة والغموض.

* تصميم الحدائق بوحي من وصف القرآن للجنّة.

ويشير هوفمان إلىٰ أن «التجريد» المتمثل في التداخل اللامحدود للزخرفة العربية (الأرابيسك)، يطلق عقال العقل للتركيز في الله الجليل عن الوصف، والتحديد، والقياس.. ولذلك غابت عن المساجد الصور التي تصوِّر الله أو الإنسان[1].

ولعل بساطة المساجد- علىٰ النحو الذي فصَّله هوفمان- هي ما جعلت الكولونيل «دونالدس روكويل»، الذي أسلم، يذكر أنه عندما كان يقف في مساجد إسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة والجزائر وطنجة وفاس، وغيرها من المدن، كان يحس بشعور عميق بقدرة الإسلام في بساطته علىٰ الارتفاع بروح البشر إلىٰ الآفاق العليا، دون حاجة إلىٰ زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقىٰ، أو طقوس رسمية، فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات، وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرىٰ؛ في ذكر الله الأحد[2].

---

(١) هوفمان، يوميات ألماني مسلم، ص: 22- 24، بتصرف يسير، ترجمة د.عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1993م.

(٢) نقلًا عن: محمد عزت الطهطاوي، في الدعوة إلىٰ الإسلام بين غير المسلمين، ص: 201، دار التراث، ط1، 1979م.

هل مشكلة الغرب معنا معرفية؟

هل حقًّا مشكلة الغرب معنا- نحن المسلمين- مشكلة "معرفية"، أي ترجع إلىٰ «عدم فهمه» لقضايانا؟

في البحث عن إجابة لهذا التساؤل، ينبغي- حسبما يؤكد كثير من الباحثين- أن نفرق بين مستويين:

المستوىٰ الأول وهو: الشعوب الغربية ، وهذه الشعوب- في معظمها- ضحية للآلة الإعلامية الجبارة، التي تدار لمصالح وأطماع جماعات خاصة، للأسف أنها بيدها (الحل والربط).

ولذلك علينا أن نمد جسور التعارف مع هذه الشعوب، وأن نشرح لهم قضايانا، آخذين في اعتبارنا طبيعة المداخل الفكرية والاجتماعية التي يتعين علينا أن نسلكها معهم.

أما المستوىٰ الثاني فهو: الحكومات الغربية، ومشكلة هؤلاء بالنسبة لنا لم تكن أبدًا مشكلة معرفية، حتىٰ يكون ثمة مبرر لمن يريد أن «يشرح» لهم عدالة قضايانا.

الحكومات الغربية لا تفهم إلا لغة «المصالح» و«القوة»، فقط لا غير ، ومن يظن غير ذلك يخدع نفسه، ويبتعد عن المسار الذي يجب أن نسلكه.

والحل إذن أن نعمل علىٰ النهوض بواقعنا أولًا، وأن نحسن إدارة أوراق الضغط التي نملكها.. وما أكثرها لمن أراد!

يخبرنا التاريخ أنه حينما بدأت طلائع الاستعمار تشق طريقها إلىٰ أرضنا ومقدساتنا، زحفًا وراء البلاد التي تفيض «سمنًا وعسلًا »- كما شاع في أدبياتهم آنذاك- فإن هذه الطلائع «العسكرية » صحبت معها جيوشًا «ثقافية » فيما عُرف بالاستشراق، وهؤلاء المستشرقون درسوا وخبروا جيدًا العالم الإسلامي أكثر مما يعرفه كثير من أبنائه!

وكان الاستشراق هو المنجم الفكري الذي يغذي تلك الهجمة الاستعمارية بالمعلومات والبيانات عن العالم الإسلامي ، فرقًا ومذاهبَ وأفكارًا، وثرواتٍ ومعادنَ وكنوزًا.

وتطورت تلك المدارس الاستشراقية حتىٰ آلت مهمتها إلىٰ مراكز الأبحاث والدراسات المختصة بالعالم الإسلامي، والتي تنتشر بلا حصر في البلاد الغربية، وبعضها يمتلك فروعًا في العالم العربي.

وبالتالي، فلم تكن المشكلة بيننا وبين الحكومات الغربية مشكلة «معرفية»، إنما تتمثل المشكلة- بلا تحامل منا- في الطبيعة الغربية الاستعمارية، التي قامت علىٰ ضرورة إيجاد «عدو» تتخلص بالاحتشاد لمواجهته من مشاكلها الداخلية، فضلًا عن طمعهم في استنزاف ثروات الغير، بأبخس الأثمان، وأحط الوسائل!

ومع ذلك، فليس الملام علىٰ من له أطماع واستراتيجيات، إنما الملام ينبغي أن يتوجه إلىٰ من ترك ساحته فارغة، ومقدساته وثرواته بلا حامٍ.. حتىٰ رتع فيها اللصوص وقطاع الطرق.